

## تحية

# حارس الحلم الفلسطيني كما عرضته

## عبد المحسن القطان... المناضل الهادئ

بسام أبو شريف\*

تمر على الإنسان لحظات يصاب خلالها بصدمة تطلق سهامها بسرعة البرق لينهال جليد جارح، صلب كصخر الصوان لبيت نوعاً من الغيبوبة التي تنال «النطق» و«الكتابة» و«الدع»، والحركة، فتشعر بأنه تجلد، يرى دون أن يرى، يراقب دون أن يكون موجوداً، وتتصارع الأحاسيس داخله دون أن تجد منفذاً للخارج.

أواخ ما أقسى تلك اللحظات، وقسوتها تقاس بمعزة الإنسان الذي رحل دون أن يعلم هو أنه راحل. وكم من عزيز فقدت وانهارت علي الجليد بفقدانه: جورج حبش، ياسر عرفات، وديع حداد، غسان كنفاني، الحاج فايز جابر، أبو أياد، أبو جهاد، كمال عدوان، كمال ناصر، أبو الهول، أبو يوسف، أبو علي أياد، أبو علي مصطفى، غيفارا غزة، باسل الكبيسي، هاني الهندي و...وووو. كلهم ناضلوا واستشهدوا بصوت عال، لكن صديقي الرجل الهمام ناضل بصمت ودون ضجيج، ورحل بصمت دون ضجيج. وهذا الصمت هو الذي حطم الجليد الذي أفقد لساني النطق، ويعثر أحرف قلبي عندما رحل عبد المحسن القطان (1929 - 2017). الأخبار 9/12/2017.

أعلم أنك لا تلومني، وأعلم أنك لا تسعى إلى ضجيج ولا تطلب تعريفاً، ولا تريد أن يشاد بك. فقد كنت تعمل وتناضل وتبني لشعبك وأمتك دون أن تتطلب أي شيء بالمقابل. كنت طوال عمرك أنت أنت... ذلك الرجل الذي يرى في عطاءه ومساعدته للأخرين سعادة لا توصف، أنت الذي لم تفكر مرتين عندما تواجه حالات تتطلب منك العطاء.

أنت الذي لم يقل لا في حياته لطلب محق، وأنت الذي لم تكن بحاجة إلى طلب حتى تعطي، فقد أعطيت للأخرين ما تحبّه لنفسك، ودون أن يطلب منك أحد أن تبذل العطاء. أبا عمر، اسمح لي بأن أشير باختصار كيف عرفتك، ولماذا أحنني احتراماً وإجلالاً لك أيها الرجل المعطاء. هزتك النكبة، مؤامرة الاستعمار والصهيونية وخططهما لتدمير الشعب الفلسطيني. انخرطت في العمل القومي الذي كان ملجأ وطريقاً لكل من صمم على النضال لاستعادة فلسطين. وفي عام 1963، حدثني عنك وعن شباب لامعين آخرين الدكتور جورج حبش، الذي كان يكنّ لك احتراماً كبيراً وتقديراً عالياً.

كانت تلك الأيام أياماً حاسمة بالنسبة إلى الشباب الفلسطيني والشباب العربي في الجامعة الأميركية، حيث التقى في تلك السنوات (1948 - 1955) صفوة من الشباب الذين كانوا يحاولون الإجابة عن السؤال: «ما العمل؟». كنت أنت واحداً من المندفعين للرد على المؤامرة وبشعور قومي رفيع، وتمحور نقاش الشباب حول وسيلة الكفاح والعمل القومي كان مطروحا من عدة جهات؛ منها: الحزب السوري القومي الاجتماعي، وحزب البعث، ومن شباب العروة الوثقى الذين تحولوا لاحقاً لتأسيس حركة القوميين العرب. قال لي جورج حبش: «عبد المحسن كان منشداً بشكل كبير إلى أهمية التنظيم وحسن الإدارة وإتقان العمل»، وكان منصفاً في ذلك، فالكل ينتمي إلى العمل القومي العربي، والكل يريد تحرير فلسطين، لكن رسم الاستراتيجية وإدارة الصراع كانت ميادين مهمة يرتبط بها التراكم الإيجابي على طريق التحرير.

وفي عمان، بعد التخرج بقيت على صلة بالعمل القومي وإن انهمكت في التدريس لإعالة من كان عليك أن تعيل. وبقي الهدف السامي نصب عينيك. ذهبت إلى الكويت لتبني في المجتمع العربي الحديث الاستقلال، ولترسي طرقاً وأخلاق عمل عالية المستوى، وساهمت في تنظيم أمور كثيرة في الكويت الذي كان حديث الاستقلال، فقد كنت تعمل للكويت، لا بل تعمل لرفعة شأن الأمة العربية. أكسبك هذا الإخلاص والتفاني في العمل المتقن احترام الكويتيين الذين درسوا معك في الجامعة، والذين لم يدرسوا. كنت تعمل بدقة وإخلاص وحسن إدارة وصدق واستقامة لأنك باستمرار كنت تعمل بنفسك، فانت... أنت المخلص النبيل.

أخي أبو عمر: لن أنسى ما عبرت عنه عينك

بعد عام 1967، واحتلال القدس والضفة الغربية، كانت نظراتك تعبر عن لهفة للإسراع في النضال لتحرير الأرض. كانتا تعبران عن نية صادقة واستعداد لا حدود له للعطاء. يشعّ منهما حنين للتحرير كأنه حنين أب ولهفته على طفله، وانعكس هذا في تلك الأيام بإقدام جريء على حمل راية القيادة، فقد كان حمل الراية صعباً ومكلفاً، ويبدو كمجازفة. وقبلت أن تتحمل مسؤولية أهم مؤسسة للشعب الفلسطيني، وهي «المجلس الوطني» - أي برلمان الشعب الفلسطيني. فمع انهيار الأنظمة، كانت «منظمة التحرير الفلسطينية» في مهبط الريح مثلها مثل الأنظمة، فانتصبت متحدياً ومستنداً إلى ما تعرفه عن شعب فلسطين لتحمل راية الحفاظ على مؤسسات الشعب الفلسطيني، وقدمت السفينة إلى بر الأمان، وسلّمتها لمن أراد أن يشق الطريق لتحرير الأرض والإنسان. وقيل تسليماً للراية لمنظمات الكفاح المسلح التي قادت «م. ت. ف.» بعدها، أنجزت ما لا يمكن لأي متغيرات أن تمحوه، وإن عدل برنامج عمل «م. ت. ف.»، وهو الميثاق الوطني الفلسطيني الذي لا يزال وسيبقى برنامج الشعب الفلسطيني إلى أن



أشعرت الجميع بخطورة «أوسلو» عندما أعلنت موقفاً رافضاً للمفاوضات

تتحرر الأرض من الاستعمار الاستيطاني الصهيوني. فعملت ذلك بصمت وتواضع. كنت تتصرف كأنك تقوم بواجبك تجاه أمتك وشعبك ووطنك... «تجاه يافا وبرتقالها الذي أصبح حزياً منذ أن غادرت أسرتك بياراتها في يافا».

ابتعدت عن العمل السياسي المباشر لتستمر في نضالك الأخر، بصمت أيضاً... ونضالك الأخر كان العطاء... العطاء... العطاء من أجل بناء أجيال واعية، متعلمة، وثيقة من نفسها ومصممة على انتزاع حقوقها وحقوق الأجيال التي ستتبعها والأجيال التي ستلي. لكنت لم تتعد بعلاقاتك الودية المحببة من كل من يجاهد لتحرير فلسطين، وكان بيتك في الكويت يعبق باستمرار بالقيادات وبكل التيارات الفكرية. كنت حميماً مع ياسر عرفات، رغم الاختلاف في الرأي في أحيان كثيرة. وكنت حميماً مع جورج حبش، رغم ملاحظتك. كنت دائماً كأولاد الطفل الحريص على طفله. ومن أجل طفله كان يعطي، طفلك كان فلسطين، وأحببت فلسطين كما أحببت عمر، وكان لي شرف نيل ثقتك وأنت لم تفصح عن ذلك، لكن تأكدت من هذا في يوم من الأيام، عندما طلبت مني أن أتحدث أنا وابنك عمر حول قضايا خاصة. وبالفعل، حدثت عمر ابنك وأحببتك كما أحببت ابني عمر. كنت تسألني دائماً عن أولادي وعن عمر، وكلمنا التقينا في لندن كنت تبدأ بالسؤال عن عائلتي: «كنت حنوناً وصديقاً وتشرح الصدر بنفسيتك الجميلة ومحبتك للناس واحترامك لهم وتواضعك، وهذا ما نفتقده يا أخي... غيابك جعل حياتنا أكثر تصحراً، فقد كنت كقطر الندى الذي يبلل شفاه من أوشك على الموت ظمًا».

بقي همك الأكبر في الحياة... الوطن وحلم تحريره، ولم يمنع عدم تعاملك المباشر

سياسياً مع هذا الحلم، حيث بقيت يقظاً وحارساً أميناً لميثاق العمل الوطني ولأمن الطريق المؤدية إلى الحلم. وكنت تبدي الرأي في المنعطفات الخطيرة واللحظات التي تعد حاسمة في تاريخ العمل السياسي، فأعلنت موقفاً واضحاً ضد احتلال الكويت، وقدمت استقالتك من المجلس الوطني الفلسطيني احتجاجاً على ذلك، لكنت أشعرت الجميع بخطورة «أوسلو» عندما أعلنت موقفاً رافضاً لمفاوضات أوسلو، وهذا كان صماماً مهماً من صمامات الحفاظ على الحقوق الفلسطينية. فإعلان رأيك الرفض لأوسلو، أشعر الجميع بخطورة مفاوضات أوسلو وما ستؤدي إليه، إذ إن عبد المحسن القطان، الذي يحترمه الشعب الفلسطيني ويقدره لم يكن من الذين يدلون علناً بأرائهم في كل صغيرة وكبيرة. كان يعمل دائماً لرض الصف الوطني الفلسطيني بصمت لتخفيف حدة الخلافات داخله. وإعلان موقف ضمن هذه السياسة له دلالاته الكبيرة، ومن أهمها التحذير من خطورة أوسلو على الشعب الفلسطيني وحقوقه. لم أر القلق في عيني عبد المحسن قطان كما رأيته عندما توجه المفاوضات إلى أوسلو. رأيت قلقاً في عام 1968، عندما تغيرت بنية منظمة التحرير الفلسطينية، واختلطت الأمور بين صناع القرار السياسي وصناع القرار العسكري. فقد كان الأمر مخلوطاً وليس مضبوطاً، رأيت في ذلك الوقت كم حاول عبد المحسن قطان أن يحمي مصلحة الشعب الفلسطيني بإبداء الرأي والنصيحة لجميع الفئات. رأيتهم يحثهم على وحدة القرار السياسي الذي سينبع منه القرار العسكري، ورأيت القلق الذي تحول إلى محاولات جادة لإقناع القيادات التي قررت الانخراط في أوسلو بعدم الانخراط ورفض تلك المفاوضات.

كان عبد المحسن القطان يتعامل مع كل المسائل المتصلة بالقضية الفلسطينية تعاطي الأب الحنون الحريص على وحدة الصف وسلامة الموقف والإخلاص للوطن ولحقوق الشعب الفلسطيني. وتحول قلق القطان إلى مزيد من العطاء لأمته ولشعبه عبر تغذية المؤسسات البناءة في ميادين التعليم والثقافة وصنع الخير وإسعاف المواقع التي تحتاج إلى إسعاف.

يغيب عبد المحسن القطان وتغيب معه تلك الابتسامة الدافئة، وتلك الألفة العائلية التي كان يشعرك بها حتى عندما ينتقد. بخاطبتنا بأسماننا دون تكلف، وصدّق القول كأنه يعرفك منذ الطفولة، ولا يخشى أحداً أو سلطة إلا الله تعالى.

اكتسب جرأة في حياته النضالية المديدة، وأكسبته الجرأة قدرة على الوضوح والصراحة والنصح ورؤية طريق المستقبل بوضوح. في هذه الدنيا، يتعامل الإنسان مع أخيه الإنسان انطلاقاً من مبادئه وأخلاقه وعلمه ومعرفته، وعبد المحسن القطان كان يعطي من نفسه للأخرين ما يشتهي لنفسه من الآخرين. صراطه مستقيم ونيته صافية ورغبته في مساعدة الآخرين لا حدود لها. ولا أدري كم هم الذين لا يزالون على قيد الحياة من حرص عبد المحسن القطان على دعمهم وفتح الفرص أمامهم نحو النجاح والتألق. إنهم كثر.

كان يقدر تقديراً عالياً الكفاءة والدقة وحسن الإدارة والتدبير، ويدعم كل من امتلك ذلك. أبا عمر: لا أخشى مطلقاً عليك، فما جاهدت من أجله وما بذلته مثقال كبير في ميزان الرحمة الإلهية. إنني أخشى على الذين لا يزالون هنا ولم يحسنوا استيعاب ما كنت تنصح به، وأقصد هنا بالتحديد في الشأن القومي والوطني. نحن هنا نشعر بالبرد من صقيع خلفه رحيلك. فقد كنت تشع دفئاً حتى وأنت بعيد عنا. كنا نرى فيك حكمة وحكمة ومعيناً لا ينضب من حب الوطن ويرتقاله، يا صاحب البرتقال، يا ابن يافا، لن تغادرنا، بل ستبقى معنا شخصاً أمامنا بوجهك السمع، وابتسامتك الدافئة الواثقة، ونظرة الحب لشعبك كأنهم أفراد عائلتك، ولك مني يا عمر كل الحب... يا ابن يافا التي سنعود إليها حتماً لنمسح عن برتقالها دموعاً ذرفت على أبيك... لأن أبناك كان فلسطين.

\* كاتب وسياسي فلسطيني

## لمحات

### هن دفاتر الحرب الأهلية: «جبهة تحرير لبنان من الغزاة»

اسعد ابو خليك

يصدر قريباً في أميركا و«إسرائيل» كتاب لصحافي إسرائيلي (وهو كاتب في مجلة «نيويورك تايمز») بعنوان «انهض وأقتل أولاً: التاريخ السري لاغتيالات إسرائيل الموجهة». الكتاب يُجمل كالعادة إرهاب إسرائيل وهو يصف عمليات التفجير بالسيارات المفخخة والقصف الجوي وتدمير أبنية سكنية بحالها في بيروت الغربية - كما حدث في صيف 1982 - على أنها عمليات «موجهة»، أي عمليات نظيفة لا تستهدف إلا رجلاً واحداً فقط، فيما هي قتلت المئات والآلاف من المدنيين والمدنّيات في هذا النوع من الإرهاب. لكن الكتاب يكشف للمرة الأولى ما كنّا نشك فيه: هو أنّ العدو أنشأ المنظمة التي عرفناها في سنوات الحرب الأهلية باسم «جبهة تحرير لبنان من الغزاة».

يورد الكتاب في المقطع الذي نشرته «نيويورك تايمز» عن ذلك: «بعد مجزرة نهاريا، أعطى رفؤل إيتان، جنرال الجيش الإسرائيلي، قائد المنطقة، أفغور بن-غال أمراً بسيطاً: «اقتلهم جميعاً»، أي أعضاء منظمة التحرير الفلسطينية وكل من يرتبط بهم في لبنان. وبمباركة إيتان، عين بن-غال الرجل الذي كان يُعتبر الخبير الأول في الجيش للعمليات الخاصة. مثير داغان، لقيادة الجنود في جنوب لبنان. الثلاثة شكّلوا «جبهة تحرير لبنان من الغزاة». الذي عاش سنوات الحرب الأهلية يذكر هذه المنظمة ويذكر جرائمها. ويذكر الذي عاصر تلك الفترة من الحرب أن الإعلام الغربي والمحلي كان يوحي بأن هذه المنظمة هي منظمة لبنانية وأنّ العدو لا علاقة له بها ويجرائمها. ولا يذكر الكتاب أنّ المنظمة تخصصت في عمليات تفجير السيارات المفخخة في الأحياء المكتظة في الجنوب وفي بيروت الغربية. وكان العدو الإسرائيلي ينسّق الإرهاب هذا مع الإذاعة التي كانت ممولة ومُشغلة ومُسيّرة من قبل العدو نفسه، أي «صوت لبنان» التابعة لحزب الكتائب اللبنانية. كانت تلك الإذاعة تبثّ إعلانات وبيانات المنظمة المذكورة بعد دقائق فقط من كل تفجير. كما أنّ عبارة «الغزاة» التي ترد في اسم المنظمة الإرهابية الإسرائيلية، تفضح التسيير الإسرائيلي لحزب الكتائب وباقى ميليشيات اليمين التي كانت منذ بداية الحرب الأهلية تشير إلى الفلسطينيين بـ«الغزاة». هذا فصل آخر من أسانيد جديدة أنّ ميليشيات اليمين التي فحرت الحرب الأهلية في لبنان (بالتنسيق مع التحالف الأميركي - الإسرائيلي) كانت تنفّذ مخطّطاً لم تكن هي فيه أكثر من أداة طيّعة وذليلة - وإن مُجرمة وإرهابية.

### «مركز باء للدراسات والنشر» خريطة طريق، للجيك الصاعد

زينب حاوي

في الزمن الإلكتروني والإقبال الأكبر لفئة الشباب على المنصات الاجتماعية، مقابل ازدياد إشكاليات الورق ومصائر الطباعة، يقابل «مركز باء للدراسات والنشر» هذه الموجة بتحدّ جديد، إذ يطلق سلسلة كتب موجهة حصراً إلى الشباب، من تأليف مدير المركز السيد عباس نور الدين. تتوزع السلسلة على أكثر من 20 كتاباً، تمسّ مباشرة قضايا الشباب وانشغالاتهم وتغطي أبعاداً خمسة: علمية، جسدية، روحية، عقلية وعملية. كل كتاب يحمل عنواناً على شاكلة سؤال، تكون الإجابة عنه في الداخل، مع شروحات جغرافية في بعض الأحيان: «كيف أصبح حكيماً»، «كيف أصبح قائداً صالحاً؟» و«كيف أصبح كاتباً ناجحاً؟».

عناوين عملت «باء للدراسات»، على الإضاءة عليها، وشرحها بغية تقديم خريطة طريق للشباب، للإمسك بمفاتيح النجاح والإبداع، من خلال الغوص أكثر في مكامن النفس، وحاجاتها، ومعرفة نقاط ضعفها وقوتها، لتجنّب الوقوع في حالات اليأس والإحباط. السلسلة يعوّل فيها المركز على أهداف عدة، من ضمنها: تحفيز موجة المطلعة وإحداث تغيير في اهتمامات الشباب من خلال الإجابات عن أسئلة مصيرية. تعمل هذه السلسلة على خطين: تقديم «رؤية واضحة»، و«زرع التفاؤل»، من خلال رسم صورة جميلة عن الحياة، وزيادة اهتمامات الشباب، والسعي في نهاية المطاف إلى تغيير في شخصياتهم نحو الأحسن. وإن كان هناك من قضايا قد يتجنّب هؤلاء الخوض فيها كالفلسفة، والتاريخ، فحتماً سيجدون أنفسهم يفوضون فيها، لأنها تحاكي يومياتهم، ومستقبلهم أيضاً. وللعلم أيضاً مكانته في هذه السلسلة، وتطوره عبر العصور، وملاسته للواقع الحالي، وخاصة في ما يتعلق بالاختصاصات الجامعية التي يتوجه إليها الشباب، ويحبطون لاحقاً لأنهم أخطأوا الاختيار. في هذه السلسلة، سوف يجد هؤلاء المساعدة وتوسيع الأفق خارج دائرة الكليشيهات كالطب والهندسة وغيرهما. والأهم - كما يشدّد القائمون على «مركز باء للدراسات». أنّ يفكر الشاب بالمهنة ضمن إفادة مجتمعية واسعة ومفيدة، لا تنحصر بالحاجة الاقتصادية.

السلسلة التثقيفية الشبابية التي أطلقها المركز هذا العام، ستليها إصدارات جديدة، تتعلق بقضايا شبابية أخرى، إلى جانب هذا المشروع، يكشف لنا القائمون عن نية الدار إصدار 8 كتب تخصّ الناشئة، على شاكلة سلسلة قصصية، وأخرى تحاكي من هم أصغر عمراً (بين 7 و9 سنوات)، لتتوسع في ما بعد وتشمل شرائح جديدة (المرأة والرجل على سبيل المثال)، وأيضاً مواضيع أخرى، كالحب والزواج وغيرهما.